

مستقبل الثقافة في المجتمع العربي

للدكتور كامل عباد

مقارنة بسيطة ، خاطفة بين مستوى الثقافة المنتشرة اليوم في البلاد العربية وبين ما كانت عليه قبل نصف قرن تكفي لتكشف لنا عن التطور الكبير في هذه الناحية من حياتنا . نلاحظ ذلك في تضخم عدد المثقفين وازدياد معاهد التعليم واتساع حركة التأليف والترجمة والنشر ، وقبل كل شيء ، في اختلاف مناهج البحث وطرائق التفكير وأساليب التعبير .

إن التطور هنا ، كما في سير التاريخ عامة ، لا يعنى التقدم المطلق ومن كافة الوجوه . وليس عسيراً أن نأتى بشواهد كثيرة على التأخر في بعض مظاهر الثقافة . ففى مثلاً أن العناية بترائنا الدينى والأدبى كانت قبل خمسين سنة أعظم منها اليوم . ونحن لا نجد في الوقت الحاضر في حركة الإصلاح الدينى أو دراسة تاريخ العرب والإسلام ما يضاهى دعوة الإمام محمد عبده أو مباحث الألويسى وجرجى زيدان . كذلك لا نشاهد الآن إنتاجاً خصباً ، قوياً في الشعر العربى نستطيع مقارنته بما نظمه حافظ ابراهيم وأحمد شوقى والرصافى والزهاوى . ولعل أبرز ناحية تقهقرت فيها الحياة الثقافية هى الصحافة العلمية التى كان ينبغى أن تسير خطوات كبيرة إلى الأمام تبعاً لحاجاتنا المتزايدة . ومهما كانت علة هذا التقهقر فلا يستطيع كل غيور على الثقافة إلا أن يأسف لمدى الانحطاط في مستوى بعض المجالات العلمية والأدبية العربية التى اشتهرت في الماضى بالرصانة ونشر المعرفة الصحيحة .

ولكن لا شك أيضاً في أن التطور الثقافى في البلاد العربية ، الذى بدأ منذ أكثر من مئة عام ثم ازدادت سرعته في الأربعين سنة الأخيرة ، قد أدى في معظم النواحي إلى تقدم ملموس وتكامل محسوس . فقد انتشرت المعارف واتسعت آفاق الفكر وكثر الاختصاص وازدادت المباحث العلمية نضجاً وتحرك

الأدب والفن من قيود التقليد واتجهوا نحو الإبداع والابتكار . وبالدرجة الأولى يتجلى التطور الثقافي في اللغة . فقد ارتقت لغة المحادثة بين جمهور الشعب وقطعت شوطاً بعيداً في طريق التقرب من اللغة الفصحى ، كما أن لغة الكتابة ازدادت بساطة ومهولة ومرونة وأصبحت قريبة من متناول عامة الشعب .

وإذا رأينا بعض المحافظين يأخذون على الكتاب المعاصرين مخالفة «أساليب العرب» فإن هذه التهمة واهية لأن أساليب العرب - رغم نزعة التقليد المستحكمة منذ القدم - قد تغيرت في بحر العصور المختلفة فلا يجوز أن نتمسك بأسلوب عصر معين دون غيره أو أن نحرم على كتاب العصر الحاضر انتهاج أسلوب جديد خاص بهم .

على أن اللغة العربية ، رغم تطورها الحديث ، لا تزال بحاجة إلى التجديد والإصلاح حتى تجارى التقدم الثقافي العام وتساير حاجات العصر في مصطلحاته الفنية وفي مخترعاته وأساليب تفكيره . .

لا خلاف في أن التطور الثقافي الحديث في العالم العربي كان نتيجة للاحتكاك بالأمم الغربية .

فقد خيم الظلام والحمود على العرب مدة أربعة قرون بعد غارات الصليبيين والمغول والتتر واستيلاء الأتراك على بلادهم . ولكنهم أخذوا يستيقظون في أوائل القرن التاسع عشر عندما تدهورت الإمبراطورية العثمانية في طريق الانحطاط والانحلال وقامت الدول الأوروبية تغير على حدودها وتحاول التدخل في شؤونها الداخلية وتطمع في الاستيلاء على ممتلكاتها . وقد كانت البلاد العربية في مقدمة أهداف الاستعمار الإنجليزي والفرنسي بسبب موقعها الجغرافي على طريق المواصلات التجارية العالمية . ولم تكن حملة نابليون على مصر وسوريا سوى مظهر للتنافس بين الاستعماريين في سبيل السيطرة على هذه الطريق . ومن المعروف أن وجود الفرنسيين في مصر كان له أثر عميق في نفوس السكان فانتبهت أفكارهم إلى ما تمتاز به الحضارة الأوروبية من وسائل القوة وشعروا بضرورة الاستفادة من تقدم الغربيين في العلوم والفنون والصنائع .

وبينما فشلت محاولة السلطان سليم الثالث لتنظيم الجيش التركي على النسق الحديث استطاعت مصر أن تقتبس كثيراً من الأنظمة الأوروبية في تكوين الجيش والأسطول وتأسيس المعاهد العلمية والصناعية كما بدأت تستعين بالخبراء الأجانب وتوفد البعثات الدراسية إلى بلاد الغرب . إلا أن هذه الحركة قد ضعفت بعد مدة قصيرة وظلت تتعثر على غير هدى ، كذلك المحاولات المتعاقبة التي قام بها في الدولة العثمانية نفسها السلطان محمود الثاني ثم فؤاد باشا وعالي باشا وأخيراً مدحت باشا لإصلاح الجيش والإدارة الحكومية ومعاهد التعليم بالاقتباس عن الغرب والتي شملت البلاد العربية أيضاً قد اصطدمت بكثير من العراقيل ولم تثمر إلا قليلاً .

في الوقت ذاته كان اهتمام الغربيين بالبلاد العربية آخذاً في الازدياد . فقد أكثروا من تأسيس القنصليات والوكالات التجارية في مختلف المدن . وبدأت بضائعهم ومصنوعاتهم تتسرب إلى الأسواق . على أن أهم وسيلة للتغلغل الاستعماري لحأت إليها الدول الغربية هي البعثات التبشيرية . فان المدارس والمستشفيات التي أنشأتها هذه البعثات كانت تعمل في كل مكان على إثارة الفتن والاضطرابات بين الطوائف . وقد عمدت المدارس التبشيرية إلى تلقين الناشئين بعض مظاهر الثقافة السطحية ، المحدودة التي لا تمت إلى البيئة الاجتماعية بصلة والتي لا ينتج عنها سوى بلبلة الأفكار واختلاف الآراء . إلا أنها رغم ذلك ساعدت على انتشار معرفة اللغات الأجنبية وبالتالي سهلت الاتصال والاحتكاك بين الشرق والغرب فأصبحت عاملاً قوياً في اطلاع العرب على الثقافة الحديثة .

ثم إن غارة الفرنسيين على الجزائر وتونس ومراكش واحتلال الإنجليز لمصر وغزو الطليان لليبيا وسياسة « التريك » التي اتبعتها جمعية « الاتحاد والترقي » في سائر البلاد العربية وما كان يهدد هذه البلاد من أخطار الاستعمار الأوروبي كل ذلك قد نبه العرب إلى ضرورة الكفاح السياسي في سبيل الاستقلال والسعي لإيقاظ الوعي القومي بنشر الثقافة الحديثة . وكان من الطبيعي أيضاً أن تتجه الأفكار إلى إحياء تراثنا الثقافي القديم والعناية بأجدادنا التاريخية لما في ذلك من حوافز تلهب النفوس ودوافع تثير الهمم . وقد سبقتنا أمم كثيرة في هذا السبيل

مثل اليونان والصرب والبلغار والطلليان والألمان كان يمكننا الاقتداء بها . وفي الحقيقة فان ذكريات الماضي بالإضافة إلى تأثير الثقافة الغربية واستفحال الاضطهاد التركي وإدراك الخطر الاستعماري - الأوروبي كلها قد لعبت دوراً هاماً في اندلاع نار الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى وقيام الحركات الاستقلالية بعدها في جميع الأقطار العربية .

ولكن هناك اختلافاً في الأوضاع والظروف أدى إلى نتائج متباينة . وإذا كنا لا نخامرنا أدنى شك في أن العرب سيتحررون من كل أثر للاستعمار والنقوذ الأجنبي وسيحققون وحدة بلادهم وسيقدمون بخطوات سريعة في طريق الحضارة والمجد ، إلا أنه لا بد لنا من إمعان النظر في أوضاعنا وظروفنا الخاصة حتى نستطيع التغلب على جميع العقبات ونتجنب العثرات ونسرع في السير إلى الأمام .

لقد استطاعت ألمانيا وإيطاليا تحقيق الاستقلال والوحدة في القرن التاسع عشر كما استعادتا مكانتهما الدولية بعد الانهيار العسكري في الحربين العالميتين لأنهما لم تتخلفا عن بقية الدول الغربية في النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية إن لم تسبقا غيرهما في كثير من النواحي . وليس الأمر كذلك مع البلاد العربية . ثم إن موقفهما من تراثهما القديم يختلف أيضاً اختلافاً جوهرياً عن موقفنا نحن العرب تجاه تراثنا . .

لاحظ العرب منذ أوائل القرن التاسع عشر ما تمتاز به الحضارة الغربية من وسائل القوة المادية وأدركوا بأنهم لن يستطيعوا مقاومة الاستعمار الغربي إلا باصطناع الوسائل ذاتها . من هنا قامت الدعوة في البلاد العربية إلى ضرورة اقتباس الثقافة الحديثة لأنها أساس النهضة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية . وفي الواقع فان هذه المظاهر تؤلف وحدة متماسكة في كل حضارة . ولكننا ، مع الأسف ، كثيراً ما ننسى هذه الحقيقة فنهم مرة باحدى النواحي دون غيرها ونسعى مرة ثانية إلى اقتباس بعضها دون الآخر . بل إننا نحاول أحياناً التفريق بين عناصر الثقافة نفسها فنعتني تارة بالأدب ونهمل العلم أو نتجه تارة أخرى إلى التعليم النظري ونغفل عن ارتباطه بالتجارب والتطبيقات العملية . .

إن حركة الاقتباس عن الثقافة الغربية قد ظلت مستمرة في البلاد العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اليوم دون نظام موحد وخطه مرسومة وأهداف معينة ، واضحة . ويكفي أن نستعرض المؤلفات التي ترجمت إلى اللغة العربية في هذه المدة الطويلة حتى تنكشف لنا الفوضى السائدة في حياتنا الثقافية إذ نلاحظ قلة عدد تلك المؤلفات ، ثم نرى أن كل مترجم ينقل ما يروق له أو يتفق مع آرائه الشخصية أو لا يكلفه كبير عناء أو يعتقد بأنه يلاقي رواجاً لدى الجمهور . وهكذا ظل العرب يجهلون أمهات الكتب التي تمثل الثقافة الغربية في أصولها واتجاهاتها الأساسية ولم يتعرفوا إلا على بعض المظاهر السطحية والجوانب التافهة من فلسفة الغربيين وطرائق تفكيرهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وأنظمتهم . وأذكر بهذه المناسبة ما سمعته في أحد دروس المستشرق الألماني الأستاذ (بيكر) إذ أشار إلى عجز العرب عن فهم الحضارة الغربية فاستشهد للبرهان على ذلك بأنه لم يترجم مثلاً إلى اللغة العربية من مؤلفات الفيلسوف (شوبنهاور) سوى رسالة له في الطعن بالنساء ربما تعبر عن رأيه الشخصي ولكنها على التأكيد لا تعكس الاتجاه السائد بين الغربيين .

وربما تبدو الفوضى في حياتنا الثقافية أشد وضوحاً إذا انتقلنا إلى ناحية ثانية كان لاحتكاكنا بالغرب تأثير كبير فيها أيضاً - بالرغم عما في الأمر من غرابة - وأعني بذلك إحياء تراثنا الثقافي . فان المستشرقين هم الذين سبقونا إلى جمع المخطوطات العربية القديمة ونشر أهم مؤلفات أجدادنا بمنتهى العناية والتحقيق ثم دراستها بكثير من الاهتمام والتعمق ومعرفة محاسنها وتقدير قيمتها واستخلاص فوائدها . أما نحن فقد اقتصرنا جهودنا حتى عهد قريب على أن ننشر أنفسنا المؤلفات أو أن نسطو على ما نشره المستشرقون ونعيد طبعه بصورة مشوهة في الغالب . وإذا كان هذا الوضع قد أخذ يتغير حقاً في السنوات الأخيرة وأصبحنا نقفدى بالمستشرقين في حسن الاختيار واتقان الإخراج فاننا لانزال مقصرين في دراسة محتويات كتبنا القديمة وبيان أثرها في تطور الثقافة البشرية والاستفادة منها في كتابة تاريخ بلادنا وحضارتنا . ولإدراك مجال العمل أمامنا في هذا الحقل أكتفي بالإشارة إلى كتاب المستشرق السويسري (آدام ميتر) عن « الحضارة

الإسلامية في القرن الرابع الهجري « أو « عصر النهضة الإسلامية » - كما هو العنوان الأصلي - الذي ترجم إلى العربية قبل سنوات ويستطيع كل قارئ أن يرجع إليه . فانه يكاد لا يحتوى على أى عبارة إلا وهى مأخوذة عن أحد المصادر العربية القديمة ، ومع ذلك فهو يقدم لنا صورة حية ، لم نكن نتخيلها عن مختلف مظاهر الحضارة العربية - الإسلامية . وهذا الكتاب لا يعد شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى مؤلفات كبار المستشرقين التى لم تنقل بعد إلى اللغة العربية مثل « الأمبراطورية العربية » لويلها وزن و « تاريخ الحضارة الإسلامية » لفون كريمر و « تاريخ الإسلام فى الشرق والغرب » لآوغوست مولر ثم على الأخص « الدراسات المحمدية » لجولد تسيهر و « تاريخ القرآن » لنولدكه و « حوليات الإسلام » لكابتانى . أليس من المؤلم أننا لا نستطيع أن نذكر إلى جانب أمثال هذه الكتب للمستشرقين أكثر من واحد أو اثنين لعلمائنا المعاصرين ؟

وإذا كنا لا ننكر بأن بعض هؤلاء المستشرقين لم يكونوا يقصدون غير البحث العلمى المجرد عن الأغراض السياسية فلانثك أيضاً فى أن أكثرهم كانوا ومازالوا يخدمون المطامع الاستعمارية . وهم كثيراً ما يعملون على تشويه تاريخنا وتراثنا الثقافى فتنتطلى علينا مكائدهم ونسرع إلى ترديد أقوالهم واتباع آرائهم .

لا أريد أن أسترسل هنا فى بيان مطاعن المستشرقين ومغالطاتهم ولكن لا بد لى من التعرض إلى ناحية أعتقد بأنها على جانب كبير من الخطورة فى توجيه ثقافتنا الحاضرة ، وإن كان الكثيرون سيخالفونى بشأنها ، وأعنى بذلك الادعاء بوجود خلاف جوهرى بين الشرق والغرب فى الحضارة والثقافة .

إن معظم الفلاسفة والمؤرخين يعتبرون البشرية كتلة واحدة وينظرون إلى الثقافة السائدة فى الوقت الحاضر كخلاصة العقل الانسانى ويقولون بأن جميع الأمم قد اشتركت فى تكوين هذه الثقافة مع اختلاف فى مقدار مساهمة كل منها ومدى مساهمته لها حسب الظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية . ولكن بعد ظهور النظرية العنصرية فى أواخر القرن التاسع عشر قام

بعض الكتاب الاوروبيين ، وبالأخص الألمان ، ينكرون وحدة الحضارة والثقافة البشرية وأخذوا يميزون بين ثقافات كثيرة لكل منها « نفسية » خاصة بها . وأشهر هؤلاء الكتاب هو (شبنكلر) الذي أحصى ثمانى حضارات أساسية فى التاريخ وادعى بأنها يختلف بعضها عن الآخر كل الاختلاف فى الثقافة والنظرة إلى الكون والحياة وفى العقائد والتقاليد والعادات وفى الآداب والفنون ، بل فى مفهوم العلوم الرياضية والطبيعية . وبين هذه الحضارات يذكر (شبنكلر) الحضارة « العربية » التى تشمل ، حسب رأيه ، البابليين والآشوريين والفينيقيين والآراميين واليهودية والمسيحية التى بلغت كمالها وتبلورت فى صورتها النهائية بظهور الاسلام وتأسيس الدولة العربية . وهو يذهب إلى أن الصفة المميزة لهذه الحضارة هى « العقيدة السحرية » .

وهذا ما يقصده أيضاً أكثر الكتاب الذين يصفون الثقافات « الشرقية » بأنها « روحانية » . وقد اختلف هؤلاء الكتاب فى تفسير معنى « الروحانية » ففهمها بعضهم على أنها العقيدة الدينية وما لها من أثر فى تطهير النفس وتهذيب الأخلاق واعتبرها آخرون مرادفة للنزعة الصافية وما يلازمها من الكشف الباطنى والتجرد عن المادة . وهى فى رأى الجميع تستند إلى العاطفة والوجدان وتتعارض مع التفكير العقلى القائم على المشاهدة الحسية والتجربة العملية والنظرة الموضوعية . وعلى كل حال فانما القصد هو إظهار الفرق بين « الغربيين » والشعوب الأخرى ثم دفع هذه الشعوب إلى التمسك بعاداتها وتقاليدها وطرائق تفكيرها القديمة لئلا تقتبس الحضارة الحديثة وتسعى للتحرر من سيطرة الغربيين .

لذلك نرى بعض المستشرقين الذين يعملون فى وزارات الخارجية والمستعمرات ببلادهم يبذلون جهوداً كبيرة فى نشر مؤلفات المتصوفين المسلمين والهنود ودراسة مذاهبهم ثم يصرحون بأنه لا سبيل إلى إنقاذ الحضارة البشرية من التفسخ والانهار إلا بانتصار « روحانية » الشرق . وقبل سنة جاء إلى الجامعة السورية بدمشق مندوب عن مؤسسة (روكفلر) وحدثنا عن أهداف هذه المؤسسة واستعدادها لمساعدة المشاريع الثقافية فى كل البلدان . ولما تكلم بعض الأساتذة عن حاجة الجامعة السورية إلى المخابر والوسائل الفنية أخذ المندوب

الاميريكى يصطنع المعاذير ويعدد الصعوبات فى تدارك الآلات المخبرية ويعلق أمر المساعدة على موافقة مجلس إدارة المؤسسة . على أنه عندما انتقل الحديث بعد برهة إلى التصوف الاسلامى لم يتردد لحظة فى قطع الوعود بالمساعدة إذا تأسس معهد للدراسات يعنى بهذا الموضوع الخطير .

ولندرك السبب فى اهتمام الغربيين بالثقافة الشرقية الخاصة وجانبها «الروحانى» يجب أن نرجع إلى المباحث التى نشرها بعض رجال السياسة والعلم فى الغرب بعد الحرب العالمية الأولى . فان هؤلاء ، وفى مقدمتهم المستشرق الهوللاندى المشهور (سنوك هورغرونيه) ، قد عللوا الثورات والاضطرابات التى نشبت إذ ذاك فى المستعمرات بأنها نتيجة لاقتباس الثقافة الغربية من قبل الشرقيين . وقد صرح المستشرق المذكور بأن قادة الحركة الثورية الاستقلالية فى (اندونيسيا) هم من الذين درسوا فى جامعة (ليدن) بهولندا . ولذلك نصح حكومة بلاده بالتوقف عن ايفاد البعثات من (اندونيسيا) إلى الغرب والاستعاضة عن ذلك بتأسيس جامعة للأندونيسيين فى بلادهم تعنى بالثقافة الشرقية .

وقد سبق الانجليز غيرهم إلى اتباع هذه السياسة فى الهند ومصر . وكانت فرنسا قد اندفعت وراء سياسة الافناء فى الجزائر وتونس لأن هذين القطرين قريبان من بلادها يمكن للفرنسيين الهجرة اليهما واحتلال مكان سكانهما القليلين أو ادماج قسم منهم فى المجموع الفرنسى . ولذلك عمد الفرنسيون إلى نشر لغتهم وبعض مظاهر ثقافتهم بين هؤلاء . ولكن بعد اتساع مستعمرات فرنسا ومناطق نفوذها أخذ رجال السياسة فيها يدعون إلى الاقتداء بالانكليز والهوللانديين . وقد لمسنا ذلك عند تأسيس كلية الآداب القديمة فى دمشق سنة ١٩٣٣ إذ حضر من باريس أحد المستشرقين المشهورين للاشتراك فى وضع المنهاج فدافع عن لزوم العناية بالبلاغة والبديع ومذاهب النحويين بينما عارض تدريس الأدب المقارن وطرائق النقد الحديث وفن القصة .

* * *

لا يتسع المجال هنا للبحث فى حقيقة «الروحانية» والمادية ، وفى الاختلاف المزعوم بين الشرق والغرب ، بل يكفى أن نتساءل :

ألم يصف بعض المستشرقين الشعوب السامية عامة والعرب خاصة بأنهم ماديون ، واقعيون وأن خيالهم ضيق ، محدود وأنهم قد اقتبسوا النزعة الصوفية عن الهنود ؟ ثم ألا نجد في تاريخ اليونان وفي تاريخ الأمم الأوروبية عصوراً سادت فيها العقيدة الدينية والنزعة الصوفية ؟ فلماذا لم يمنعها ذلك من الانتقال إلى عصور أخرى سيطر فيها الاتجاه العقلي والبحث العلمي والنظرة المادية ؟ ثم ماذا نقصد بالشرق والغرب وأين هي الحدود بينهما ؟ ثم أليس هناك فروق ظاهرة بين الثقافة الانجلو - سكسونية والثقافة اللاتينية ؟ وهل يمكن أن نقارن « العقلية » الألمانية بالعقلية الفرنسية ؟ وإذا نظرنا إلى الاسبان والاطليان فهل نجدهم في المزاج والعاطفة والتفكير أقرب إلى الاسكنديناويين والانكليز أم إلى المصريين واللبنانيين والسوريين ؟ وهل حال وجود اليابان في أقصى الشرق من أن يقتبس أهلها الحضارة والثقافة « الغربية » ؟ وأخيراً ألم تنتشر الحضارة المصرية القديمة في عهود ازدهارها في أكثر أنحاء المعمورة ومثلها الحضارة اليونانية وبعدها الحضارة العربية - الاسلامية فاستفادت منها كلها سائر الشعوب وساعدت بذلك على تقدم البشرية كافة ؟ فلماذا يراد الآن بحصر الثقافة الحديثة بالأمم « الغربية » ويطلب إلى الشعوب الأخرى أن تتمسك بثقافتها القديمة ؟ ألم تستمد الثقافة السائدة اليوم في الغرب أكثر عناصرها من اليونانيين والصينيين والعرب ؟

إذا أمعنا النظر في هذه الأسئلة وأمثالها فلا بد لنا من الاعتراف بأن تقاليدنا لا تتعارض مع اقتباس الثقافة الحديثة السائدة في الغرب . وفي الحقيقة إذا تركنا جانباً فئة المحافظين في بعض الأقطار العربية - وهي فئة قد أصبحت لحسن الحظ ، قليلة العدد - فاننا لا نجد اليوم بيننا من ينكر ضرورة هذا الاقتباس وإنما هناك فئة ، تسمى نفسها بالمعتدلة ، تريد أن يقتصر الاقتباس على محاسن الحضارة الغربية وعلى تلك النواحي من ثقافتها التي تتلاءم مع خصائصنا وتقاليدنا وعاداتنا . ونقطة الضعف في هذا الرأي هي الصعوبة في تحديد الصفات والتقاليد والعادات التي نختص بها ويجب أن نحافظ عليها ثم الاختلاف حول المعيار الذي يميز المحاسن من المساوي . ومهما كان الأمر يحسن بنا عند الكلام على تراثنا الثقافي وعلى عاداتنا وتقاليدنا أن نرجع إلى أصولها التاريخية

ونلاحظ الظروف التي تكونت فيها والتقلبات التي طرأت عليها ثم أن نسأل أنفسنا دوماً : هل يجب الاحتفاظ بكل ما انتقل إلينا عن الماضي ؟ وهل يمكن أن يستمر بعض التقاليد والعادات مدة عصر أو عشرة عصور حتى تصبح جزءاً لا ينفصل عن تراثنا ينبغي التمسك به ولو تبدلت الظروف التي دعت إليه أو رغم أنه كان محصول عهود الانحطاط والسيطرة الأجنبية ؟ هنا مثلاً مخلفات كثيرة من العهد التركي في جميع البلاد العربية تغلغت في العادات والتقاليد وفي اللغة وأنظمة الحكومة والمدارس ، فهل نتمسك بها مجرد لأنها تعكس حقبة معينة من التاريخ ولو كانت لا تتلاءم مع أوضاعنا الحاضرة ؟

إننا جميعاً من محافظين ومعتدلين ومجددين وفاخر ونعز بما اتصفت به الثقافة العربية في عهود ازدهارها من المرونة والقدرة على التكيف واتساع الآفاق ومجاعة سنة التطور . وفي الحقيقة فقد سارع أجدادنا إلى الاقتباس عن كافة الأمم على أوسع مقياس . هكذا اقتبسوا أنظمة الإدارة والمسالية وآداب السلطان وقنون المعاري والموسيقى والنقش عن الفرس والبيزنطيين ثم أساليب الري والزراعة عن الأنباط والحساب عن الهنود وصناعتي الورق والحرف عن الصينيين كما رجعوا إلى الكتب اليونانية القديمة ليأخذوا عنها الطب والعلوم الرياضية والطبيعية والفلسفة . وهم لم يحجموا عن دراسة العقائد والمذاهب والمبادئ المختلفة كاليهودية والمسيحية والافلاطونية الحديثة والمانوية والمزدكية والصوفية ومناقشتها والتأثر ببعض الأفكار والتيارات السائدة فيها . وإذا استعرضنا المراحل التي اجتازتها حركة الاقتباس في تلك العهود يتبين لنا أنها كانت تسير تطور المجتمع وازدياد حاجاته . فقد بدأت بالأمور العملية الضرورية كتنظيم الدواوين والبريد ثم الطب والحساب والهندسة وبعدها الصناعات والفنون وأخيراً العلوم والفلسفة . وهذا هو السير الطبيعي لتطور الثقافة البشرية . فالعقل الإنساني لم يكن في الأساس ، سوى آلة تستخدم للنجاح في معترك الحياة . وهو قد كان في بادئ الأمر ، مثل المنقار لدى الطير ، وسيلة تساعد الإنسان على اكتساب معيشته . والأفكار الأولى عند البشر إنما تكونت كردود فعل للحاجات المباشرة ونتيجة لكثير من المحاولات والتجارب والأخطاء في سبيل

مؤالفة البيئة . على أنه بعد تقدم المجتمعات البشرية واحتكاك بعضها بالآخر نرى الأفكار تكتسب كياناً ذاتياً وتستقل عن الأشخاص الذين توصلوا اليها بالتجربة وتصبح قادرة بدورها على التأثير في الحياة ، بل إنها تستطيع خلق حياة جديدة . والشرط الأساسي لتأثير الأفكار هو أن تكون صوراً تعبر عن حاجات حقيقية في المجتمع . وبدون ذلك تفقد قوتها المحركة وتصبح سبباً للاضطراب والفوضى أو الحمود والتأخر .

ثم إن الثقافة العربية قد كان لها تأثير كبير في نشأة الحضارة الحديثة . فان عهد النهضة في أوروبا كان نتيجة مباشرة للاحتكاك بين الاوروبيين والعرب في الأندلس وصقلية وأثناء الحروب الصليبية . يقول المؤرخ السويسري (بورخاردت) صاحب الكتاب المشهور عن « عصر الاحياء في إيطاليا » إن أول أوروبي حديث هو (فريدريك الثاني) ملك النورمانديين في صقلية وجنوبي إيطاليا . وقد كان هذا الملك وابنه (مانفريد) يتقنان اللغة العربية ويفضلانها في المحادثة . وكانت اللغة السائدة في البلاط ودواوين الحكومة والمدارس هي العربية . وكان أكثر رجال الدولة وأساتذة الجامعات من العرب . وفي ذلك العهد تمت ترجمة كثير من الكتب العربية إلى اللاتينية . وقد بلغ تعصب الملك فريدريك للعلوم والآداب والفنون العربية درجة اضطرت معها المجمع الديني في (ليون) سنة ١٢٤٥ إلى حرمانه من الغفران بتهمة الالحاد واتباع تقاليد « الكفار » وعاداتهم . ولم تمض على ذلك عشرات من السنين حتى كتب الفيلسوف الانجليزي (روجر باقون) يقول : « الفلسفة مستمدة من العربية . فاللاتيني على هذا الاعتبار لا يستطيع أن يفهم الكتب المقدسة والفلسفة إلا إذا عرف اللغة التي نقلت عنها » .

ومن المعروف كيف اقتبس الاوروبيون في العصور التالية العلوم الرياضية وبالأخص الفلك والجبر ثم الطبيعيات والطب والفلسفة عن الكتب العربية وكيف ظلت مؤلفات أبي بكر الرازي وابن سينا وابن رشد وابن الهيثم وأبي القاسم الزهراوى تدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرنين

السادس عشر والسابع عشر . كذلك انتقل إلى أوروبا التصوف الاسلامي
والفن المعماري العربي وكثير من الصناعات . والموسيقى الاسبانية وعلى الأخص
أناشيدها الشعبية لا يمكن فهمها دون الرجوع إلى الموسيقى العربية في الأندلس .
ولم يقتصر تأثير الأدب العربي في الغرب على نشأة الشعر الغنائي في جنوب
فرنسا وعلى (الكوميديا الآلهية) لدانتى وعلى قصص (بوكاشيو) و(سرفانتيس)
بل تعداه إلى مؤلفات (جوته) و(روكرت) في أول القرن التاسع عشر أيضاً .

* * *

والآن لتأمل حالة البلاد العربية في الوقت الحاضر وعلاقتها بالعالم .

إن أول شيء يتبادر إلى الذهن هو الفرق بين وضع العرب الحالي ووضعهم
عند اقتباسهم الثقافات الأجنبية في الماضي . وأعني بذلك أننا اليوم مستضعفون
وأن القسم الأكبر من بلادنا ما زال خاضعاً للاحتلال أو النفوذ الأجنبي خلافاً
لأجدادنا الذين كانوا فاتحين ومسيطرين .

ولهذا الفرق تأثير عميق من الوجهة النفسية . فإن الأخطار التي تهدد كياناتنا
القومية تدفعنا بطبيعة الحال إلى التمسك بعاداتنا وتقاليدنا وإلى الحذر من ثقافة
الغرب .

ثم نلاحظ ثانياً : أننا على العكس من أجدادنا ، نواجه العالم الحديث
ونحن أصحاب مجد عظيم ولكنه غابر وتراث ثقافي غني ولكنه قديم . وهذا يمكن
أن يصبح حافزاً ومشجعاً على النهوض والتقدم ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون
عبئاً ثقيلاً يعوقنا عن السير بخطوات سريعة .

ويتبين لنا ثالثاً : أن الثقافات التي أقدم أجدادنا العرب على اقتباسها ،
وعلى الأخص الثقافة اليونانية ، كانت قديمة ، مينة ، منفصلة عن المجتمع الذي
نشأت فيه وازدهرت ، في حين أن الثقافة الحديثة التي نريد اقتباسها لا تزال
في دور النمو والتكامل ، تتطور وتتقدم بخطوات جبارة في مجتمع نشيط متحرك
وتزداد كل يوم اتساعاً وتعقيداً .

حقاً إننا نعيش في عصر لم يسبق له مثيل في التاريخ من حيث سيطرة الصناعة الآلية وتقدم وسائل النقل والمواصلات وانتشار المخترعات الحديثة حتى تقاربت المسافات وأصبح العالم كله كتلة واحدة ، متماسكة . وقد تشابكت مصالح الأمم وارتبطت مقدراتها بعضها ببعض ولم يعد في استطاعة واحدة منها أن تظل في عزلة عن غيرها .

في هذا العالم يسود التنافس والتناحر ولا سبيل للنجاح والبقاء فيه إلا للأقوياء الذين يتسلحون بأحدث وسائل الكفاح من علم وصناعة ودعاية وتنظيم . إن جميع الأمور في هذا العالم تتطور بسرعة مدهشة وقافلة الشعوب تسير بلا توقف وكل من يتأخر عن الركب لا يأمن الهلاك .

كل هذا تترتب عليه نتائج خطيرة أهمها أننا لا نستطيع اختيار وسائل العيش والكفاح كما نشاء ، بل سنضطر إلى اتباع وجهة مفروضة علينا فرضاً . والواقع هو أنه ، بينما كنا في الخمسين سنة الأخيرة نتجادل حول موقفنا من الثقافة الحديثة ، كانت حضارة الغرب قد اجتاحت بلادنا بصناعاتها وأنظمتها ومذاهبها وانتشرت بيننا ثقافتها في مختلف مظاهرها سواء باختيارنا أو رغم إرادتنا . وقد تطورت حياتنا العامة في هذه المدة تطوراً شاملاً عميقاً لم نكن لتصور إمكان حدوثه بعد أجيال عديدة .

يتجلى ذلك قبل كل شيء في استخدام الآلات والمخترعات الحديثة وفي طراز البناء واتساع المدن وتنظيمها وفي جهاز الدولة وأساليب الحكم وفي الأعمال التجارية وطرائق التدريس وفي كيان الأسرة ومكانة المرأة والعلاقات الاجتماعية عامة . وبفضل وسائل النقل والمواصلات العصرية تسرب الكثير من مظاهر هذا التطور إلى الريف نفسه وأخذ يغير معالمه التي ظل محتفظاً بها منذ آلاف السنين . وفي جميع البلدان العربية نشاهد هجرة القرويين إلى المدن الكبيرة والمراكز الصناعية واندماجهم في طبقة العمال الناشئة التي يزداد الوعي والتكتل والتنظيم بين صفوفها . ولاشك في أن أهم انقلاب اجتماعي هو انهيار الاقطاعية في أكثر البلاد العربية وقيام الجماهير الشعبية للمطالبة بحقوقها ورفع مستوى معيشتها وتحسين أوضاعها عامة . وقد أصبحت بلادنا

تشغل مكاناً بارزاً في السياسة الدولية والصراع العالمي بسبب موقعها الحربي وكنوزها من النفط .

والمشكلة التي تجابهنا الآن ليست أن نبحث ونتناقش فيما إذا كان هذا التطور خيراً أم شراً وأن نقابله بالاستحسان أو الاستهجان وإنما المشكلة هي : ماذا يجب أن نعمل للسيطرة على الأوضاع الحديدية وكيف نستطيع النجاح في معترك الحياة العصرية ؟

لاشك في أن أول واجب تفرضه علينا الظروف الحاضرة هو السعي إلى زيادة الانتاج وتنمية الثروة العامة لمجابهة تكاثر السكان المطرد وتلبية الحاجات الحضارية الحديدية وهيئة وسائل القوة الضرورية . وهذا يقتضى تركيز الجهود لاستثمار مواردنا الزراعية . ثم لا بد من تأسيس صناعات تعتمد على المحصولات الزراعية وصناعات خفيفة أخرى يسهل تدارك موادها الأولية . كذلك لا غنى للبلاد العربية عن إنشاء المصانع الحربية لمختلف الأسلحة والذخائر .

هذه الأمور كلها تحتاج إلى المعرفة العلمية والاختصاص الفني وإعداد العمال الماهرين والمراقبين الصالحين ، كما أن نجاحها يتوقف على تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فان التنظيم أصبح ضرورة لا مناص عنها في المجتمع الحديث . ونقصد بالتنظيم هنا ذلك الذي تقوم به الحكومات على مقياس واسع يشمل جميع نواحي الحياة العامة .

لقد انقضى العهد الذي كان الناس يرددون فيه القول مع الفيلسوف الانجليزي (جون ستيوارت مل) بأن مهمة الحكومات يجب أن تقتصر على الحراسة فتدافع عن الحدود وتمنع اعتداء الأفراد بعضهم على بعض . كما تبدد الوهم بأن قوانين الاقتصاد ولاسيما المنافسة الحرة كفيلة وحدها بتأمين الانسجام بين المصالح الخاصة والخير العام . فان الأزمات والاضطرابات المتوالية قد دفعت الحكومات إلى التدخل في الحياة الاقتصادية إما لحماية الصناعة الوطنية أو القيام بالمشاريع الكبرى الحيوية أو لمكافحة الاحتكار ومراقبة الأسعار وتحديد الأجور وتوفير العمل للعاطلين . ثم ازداد هذا التدخل أثناء الحربين العالميتين

فاضطرت جميع الحكومات إلى الأخذ بمبدأ الاقتصاد الموجه . ولم يعد أحد يجهل بأنه لا سبيل إلى حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية إلا عن طريق التنظيم والتصميم ووضع المناهج البعيدة المدى التي تحدد الأهداف وترتب المشاريع حسب الأهمية وتعين مراحل التنفيذ ونهجي* وسائله .

وكان طبيعياً أن يشمل التنظيم شؤون التربية والتعليم والثقافة أيضاً لما لها من التأثير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية . ونرى الحكومات الحديثة تعنى منذ مدة طويلة بانتهاج « سياسة تعليمية » واضحة ، معينة كما أخذت تزصد الأموال في الميزانية العامة لمختلف الأهداف والمؤسسات الثقافية من معاهد علمية وفنية ومناحف ومعارض ودور التمثيل والاذاعة والسينما . على أن ما تنفقه أكثر الحكومات في هذا السبيل ما زال قليلاً جداً لا يتناسب مع المكانة التي يجب أن تنالها الثقافة . ورغم أن الحكومات تحرص على توجيه المؤسسات الثقافية ومراقبتها إلا أن ذلك يتم في الغالب بصورة هزيلة مضطربة ودون أي صلة بالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي .

ومادام بحثنا يدور حول مستقبل الثقافة في المجتمع العربي فمن الضروري أن نحاول توضيح هذه الصلة وبيان ماهية الثقافة وتأثيرها في الحياة العامة والنهضة القومية .

الثقافة اصطلاح جديد في اللغة العربية ، نستعمله مقابل كلمة (Culture) المشتقة من اللاتينية والتي تفيد في الأصل الحرث وعمارة الأرض وهي لم تكتسب المعنى المقصود بها الآن في الفرنسية وأكثر اللغات الأوروبية إلا في العصور الحديثة . أما في اللغة الألمانية فكلمة (Kultur) إنما تطلق على الناحية المعنوية من الحضارة للتفريق بينها وبين المظاهر المادية والتنظيمات المدنية التي تسمى (Zivilisation) . ويستخدم الألمان كلمة أخرى لما يقصده بالثقافة هي : (Bildung) التي تفيد : التكوين (أي إعطاء الشيء صورته وهيئته) . وهذا قريب من مفهوم (التثقيف) في العربية أي تشذيب الأغصان وتقويمها ثم بطريق المجاز تقويم العقل وصلقه .

للثقافة مدلول واسع يشمل العلوم والآداب والفنون واللغة والعقائد والعادات والتقاليد والأفكار والمؤسسات والأنظمة وأساليب التربية والتعليم وضروب التسلية والمتعة وكل ما يوجه سلوك الأفراد في المجتمع وينظم علاقات بعضهم ببعض ويساعدهم على التعبير عن حاجاتهم وخيالاتهم ورغباتهم وآرائهم .

ولكنها أحياناً تختصر مدلولها على الصنف العليا من ألوان التحصيل والتهديب التي تتمتع بها نخبة ممتازة هي طبقة « المتعلمين » . ويبدو ذلك واضحاً في التمييز بين « الثقافة » على الإطلاق وبين « الثقافة الشعبية » .

وعلى كل حال فإن الثقافة ، في الأساس ، ظاهرة تاريخية - اجتماعية . إنها ليست مجردة عن الزمان والمكان ، بل تمثل دوماً مرحلة معينة من تطور المجتمعات البشرية . ومظاهر الثقافة في مجموعها إنما تعبر عن أسلوب الحياة في بيئة اجتماعية معينة . ولذلك تختلف العناصر المسيطرة على الثقافة حسب الظروف التاريخية والأوضاع الاجتماعية ، فبرزت أحياناً الناحية العلمية وأحياناً الناحية الأدبية أو الفنية وتارة تسود العقيدة الدينية وتارة أخرى النزعة المادية .

والثقافة تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق التربية والتعليم وبواسطة التقليد والايحاء فتبدل عناصرها وتتطور بصورة بطيئة أو سريعة وتتجدد بما يحدث في المجتمع نفسه من اكتشافات واختراعات أو بما يقتبس من المجتمعات الأخرى . وهكذا تصبح الثقافة تراثاً مشتركاً تساهم فيه الأجيال المتعاقبة ويربط بين الماضي والمستقبل فهو محصول التجارب السابقة وأساس البناء للجهود التالية .

والثقافة كمجموع التجارب والجهود المشتركة تساعد أفراد المجتمع على التفاهم والعيش معاً وتمكنهم من تحقيق الانسجام والاتساق بين ما هو داخلي في أنفسهم وما هو خارجي من بيئتهم ، بين حياتهم الباطنية وسلوكهم مع غيرهم . وبذلك تقوم الثقافة بوظيفة اجتماعية هامة فتؤدي إلى تماسك المجتمع وتضامنه .

إن هناك علاقة وثيقة بين الثقافة والحياة الاجتماعية . وربما كان الأصح أن لا نفصل إحداهما عن الأخرى ، لأن الثقافة ليست في الحقيقة سوى

مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ومرآة تعكس القوى والتيارات السائدة فيها .
فجميع التقلبات التي تحدث في كيان المجتمع تؤثر بدورها في الحياة الثقافية .
هكذا نرى أن الانتاج الثقافى ومدى الاستفادة من هذا الانتاج ثم كيفية
تكوين الصفوة الممتازة وجمهرة المثقفين - كل ذلك يتوقف على توفر شروط
اجتماعية معينة . فإذا بحثنا مثلاً في مستوى الثقافة الذى يمكن أن يبلغه الأفراد
ظهر لنا بأنه يتناسب مع درجة تقدم المجتمع الذى يعيشون فيه . لذلك لا يمكن
أن نتصور قيام عالم كبير في الطبيعيات أو الهندسة أو الجغرافيا ضمن جماعة
إبتدائية . ولنأخذ مثالا آخر ما يلاحظ من قلة الابداع أو انعدامه بالمرّة في
بعض العصور من تاريخ الأمم . فهذه الظاهرة لا تدل على أن تبسلاً فجائياً
قد طرأ على مواهب البشر . ولا يفيدنا شيئاً القول بأن الكفاءة والتبوع من
أسرار الطبيعة التي لا يدركها العقل . وإنما يجب أن نحاول تعليل هذه الظاهرة
بالكشف عن العوامل الاجتماعية التي نشأت عنها . حينئذ يتبين لنا أن ازدهار
الثقافة وتقدمها يتوقفان على وجود فئة خاصة من أفراد المجتمع تستطيع الانصراف
إلى الدرس والبحث والمشاهدة والتأمل هي ما يسمونه بالصفوة أو النخبة الممتازة .
ومهمة هذه الفئة هي أن تستفيد من الطاقة النفسية الزائدة التي لا يستنفدها
المجتمع في كفاحه اليومي في سبيل البقاء فتهيأ لها أسباب التسامى وذلك
بإثارة الميول الفطرية لدى الجمهور إلى المعرفة والتأمل الباطنى وتذوق الجمال
والتعبير عن الذات . هذه الفئة من طبيعتها أن تنقلب إلى طبقة ممتازة في المجتمع .
على أنها إذا أصبحت مقفلة وصارت تتوارث الثقافة وتحتكرها ، كما كانت
الحال مع طبقة الكهان في المجتمعات القديمة ، فلا بد أن ينتهى بها الأمر إلى
الحمود والتفسخ . وبالعكس فإنها تزداد نشاطاً وخصباً عند ما تكون مفتوحة
لأصحاب المواهب من جميع الطبقات - ولكن على شرط أن تظل في الوقت ذاته
محدودة نسبياً لتستطيع المحافظة على صفتها الممتازة والقيام بوظيفة القيادة والارشاد .
أما إذا تدفقت عليها سيول من العناصر الحديدية وانقسمت إلى كتل كثيرة وتجاوز
عددتها حداً معيناً فإنها تطفئ بعضها على بعض وتشتت جهودها وتفقد جميعها
صفة القيادة وتعجز عن القيام بتأثير عميق في المجتمع كله . وعندئذ فان
الميول والنزعات والدوافع الكامنة في الجماهير لا تجد من يهذبها ويتسامى بها

فتتحول إلى شهوات ونزوات واندفاعات عابرة وإلى عقد واضطرابات نفسية متأصلة تتطلب على الدوام إحساسات متجددة ، متنوعة تتعاقب سريعاً وتزول دون أن تترك أثراً . وقد أصبحت العواصم الحديثة تزدهر بمثل هذه الجماهير المتعطشة إلى وسائل التسلية والتخدير والتحويه وصار المحترقون للثقافة لا يهتمهم إلا لإرضاء هذه الجماهير يقدمون لها ما تشتهي من زخرف وبهرج . وإذا رأينا بعض المخلصين للثقافة يحاولون نشر المعرفة الصحيحة وتنمية الذوق السليم فإن جهودهم لا يمكن أن تثمر كثيراً لفقدان جمهور معين ، ثابت يتبع توجيههم باستمرار . وقد بدأنا نشاهد في البلاد العربية مثل هذه الظواهر التي تهدد مستقبل الثقافة . ولن نستطيع تجنب الأخطار المدممة إلا عن طريق تنظيم الثقافة والمجتمع معاً .

إن الرأي العام في جميع البلدان يحصر كل اهتمامه حول الأحداث السياسية والعلاقات الدولية لمسا يلمسه من تأثيرها في أمور المعيشة والأمن . أما الشؤون الثقافية فإنه لا يكثر بها كثيراً - رغم تقديره لقيمتها واعترافه بأنها الدعامة الأساسية في بناء الحضارة - لأنه قد اعتاد أن ينظر إليها كموضوع مستقل ، قائم بذاته ولا علاقة له بمشاكل الحياة الاقتصادية والاجتماعية . ومن الغريب أن هذه النظرة الخاطئة مازالت شائعة بين رجال العلم أيضاً بل لعلها بين العلماء وغيرهم من المثقفين أكثر انتشاراً مما لدى جمهور الشعب . فإن ازدياد تقسيم العمل وقيام مؤسسات خاصة تعنى بالثقافة وانقطاع الصفوة الممتازة في عهود السلم والاستقرار إلى الانتاج الفكري ، الذي لا يخلو من بواعث ذاتية - كل ذلك مما يجعل المثقفين يغفلون عن الصلة الوثيقة بين الثقافة والمجتمع . وإذا رجعنا إلى التاريخ نرى الصفوة الممتازة في المجتمعات الطبقيّة تحتكر الثقافة كوسيلة لنيل الجاه وكسب العيش وتسعى إلى الاحتفاظ بها كعالم مستقل تحيطه بالأسرار وتعزله عن جمهور الشعب . ثم يقوم الحكام فيقربون إليهم هذه الصفوة الممتازة ويشملونها بالعطف والرعاية والعطايا السخية في سبيل استخدامها للسيطرة على عقول المحكومين وعواطفهم . وفي الواقع

فإنها كثيراً ما تتولى الدفاع عن الآراء والمبادئ التي تبرر الأنظمة السائدة ولو كانت تتعارض مع ضرورات التطور الاجتماعي وتخالف الحقائق العلمية ، كما كانت الحال مثلا مع فلاسفة اليونان والرومان الذين ادعوا بأن الرق من مقتضيات قوانين الطبيعة . وكان أفلاطون خاصة ينصح الحكام باستخدام الأساطير وغيرها من الأكاذيب كوسيلة للسيطرة .

كذلك يجب الملاحظة بأن الفكر إذا بلغ درجة كافية من التطور يصبح قادراً على أن يتصور عوالم خيالية يعيش فيها وينعزل عن محيطه . هكذا نرى الطبقة المتوسطة بألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر ، عندما فشلت في محاولتها لقلب الأوضاع السياسية والاجتماعية ، قد اضطرت إلى الانكماش على نفسها واتجهت إلى الذكريات التاريخية - المندثرة والنظريات المثالية - الخيالية وخلقت من الحياة الثقافية عالماً مستقلاً تنقطع فيه إلى أحلامها .

وأخيراً فإن من طبيعة التفكير المجرد أن يفصل بين محتوى الثقافة وصورتها بين مادتها وشكلها أي بين التراث الفكري والأدبي والفني من جهة ، وبين الأثر النفسى الذى ينشأ عن التربية والتعليم من جهة ثانية . وبما أن محتوى الثقافة يتجسد في آثار مادية فمن السهل أن مجرد عن المجتمع الذى أبدعه وعن الظروف التى نشأ فيها وأن ينتقل إلى مجتمع آخر .

ونحن نشاهد الناس يقصدون بالثقافة في الغالب هذا المحتوى ويطلقون صفة « المثقف » على كل شخص يحصل على كل قسط من المعلومات ، ناسين أن هذه المعلومات لا قيمة ثقافية لها إلا بما تركه من أثر في تفكير الشخص وقدرته على الابداع وعلاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه .

لاشك في أن محتوى الثقافة لا يخلو من قيمة ذاتية أيضاً . ولكن جوهر الثقافة إنما هو الأثر الذى تركه في النفس والصورة التى تسبغها على الشخصية . والغاية من الثقافة ليست سوى تنمية الميول والمواهب وإيقاظ الحياة الباطنية وتهذيب العواطف وتقويم العقل وتقوية الارادة وتكوين الشخصية . وكل ذلك يتطلب اكتساب مادة الثقافة وتمثيل محتواها . وهكذا فالصورة والمساعدة مرتبطتان . ولا سبيل إلى الكمال إلا بالانسجام بينهما ، كما هو الأمر في روائع

الفن والأدب التي تتجلى قيمتها البديعية في الناحية الشكلية ولكن على شرط أن يكون الشكل منسجماً مع المادة أي مع الموضوع الذي يعبر عنه لأن لكل موضوع صورة باطنية تناسبه والشكل الخارجي إنما ينبئ عن هذه العلاقة.

* * *

إن العوامل المختلفة التي أشرنا إلى بعضها قد أدت إلى تشويه مفهوم الثقافة فصار الناس يفصلون بين الثقافة والحياة الواقعية ويعتبرون الثقافة من المظاهر الكمالية كأنها ليست سوى حلية للزينة . ولما كانت كل زينة تخفى ما تحتها فإنها تصبح وسيلة للغش والتزييف ويمكن تشبيهها بالوشم الذي إنما يشوه جسم الانسان . وفي الحقيقة فإن هذه الثقافة المزيفة قد أصيبت بالشلل وأصبحت عقيمة ، محكوم عليها بالموت .

وقد نشأ عن المفهوم الخاطيء للثقافة كثير من النظريات الفاسدة والاتجاهات المضرة في العلم والأدب والفن وفي التربية والتعليم .

نذكر مثلاً نظرية « الفن للفن » التي ما زال البعض ينساقون معها رغم الانتقادات العنيفة التي كشفت عن فسادها . فالتاريخ يبرهن لنا على أن الفن كان دوماً سلاحاً قوياً في خدمة الآلهة والملوك والحكومات— ولكن أيضاً في أيدي الثوار المدافعين عن الفلاحين والعمال وعامة الشعب . والفن الذي لا يعبر عن حياة المجتمع إنما يستخدم— سواء بصورة شعورية أو لاشعورية— للتضليل والتخدير . وإذا رأينا بعض الشعراء يتبجحون بالسمو عن العالم وعن مشاغل الناس فليس ذلك سوى دليل على العجز . فالشعراء أيضاً لا يعيشون في الأثير الطلق ، إنهم أبناء عصرهم ومجتمعهم ، بل يجب أن يكونوا ألصق من غيرهم بهذا المجتمع وأقدر من الآخرين على إدراك هذا العصر . ليس من اللازم أن يشتغلوا بالسياسة ، بل من الضروري أن لا ينخرطوا في السياسة بمعناها الضيق حتى يستطيعوا الإحاطة بكل ما يجري حولهم . وليس من أحد ينكر عليهم حق الاعتكاف والاعتزال في صوامع هادئة وأبراج عالية . ولكن الوحدة والعزلة ليستا هدفاً لذاتهما وإنما وسيلة للسمو . والشاعر الذي لا يستطيع أن ينظر إلى بعيد وينذر شعبه بما هو آت يكون شاذاً : فهو إما أنه ليس له برج

يشرف منه على آفاق الحياة الفسيحة وحينئذ ينبغي عليه أن يظل على الأرض يكدح مثل غيره وإما أنه ليس له عينان تبصران ، وعندئذ يجب عليه أن يختار مهنة أخرى غير الشعر .

ومما يبشر بالنهضة الأدبية في البلاد العربية أن الكثيرين من الكتاب بدأوا مؤخراً يتكلمون عن مهمة الأدباء في المجتمع ، بل عن «تجنيد الأدب» لتحرير الشعب وخدمته . ولكن بقي علينا أن نميز بين الأديب بالمعنى الصحيح وبين الكاتب الذي ينقلب إلى موظف منفذ للأوامر أو بوق للدعاية . إن رسالة الأديب في هذا العصر الحديث هي أن يعلم الناس كيف ينظرون إلى الطبيعة ويفهمون أسرارها وكيف يلاحظون الحوادث الاجتماعية ويدركون الروابط بينها ثم أن يغوص بهم في أعماق النفس البشرية ويقربهم من معرفة أبناء جنسهم وأن يسمو بخيالهم حتى يستطيعوا تصور الحياة في الماضي والمستقبل ويتوصلوا إلى انتزاع المثل الأعلى من صميم الواقع وأخيراً أن يبعث فيهم روح المغامرة والاقدام وحب العمل والنضال .

ومن المؤكد أن الأديب لا يؤثر في الجمهور عن طريق الوعظ والنصيحة ، بل بأن يقدم له نماذج من الحياة تمثل آلام الناس وآمالهم وأعمالهم وطرائق تفكيرهم وكفاحهم ونظرتهم إلى الكون وعلاقاتهم بعضهم ببعض .

ولنضرب مثلاً آخر ، نظرية « العلم للعلم » . فالعالم أيضاً يحتاج إلى حياة التأمل الهادئة وإلى الحرية التامة في التفكير ، وهو لا يتوصل إلى المعرفة الصحيحة إلا عن طريق البحث النظري المجرد . ولكن لو كانت رسالة العلم هي التأمل في الكون لذات التأمل لما وجد العلم كما نعرفه اليوم . فان أبسط دراسة لتاريخ العلم تبين لنا ، كما يقول الأستاذ (برنال) « بأن الحاجات المسادية كانت هي الدافع للاكتشافات والاختراعات العلمية وأن الأدوات المسادية هي الوسائل الضرورية لاتمام هذه الاكتشافات والاختراعات » .

وقد نشأ العلم الحديث وتقدم بفضل تحقيقه لضرورات الحياة المسادية . فهو الذي مكن الانسان من السيطرة على الطبيعة وساعده على مكافحة الأمراض وزيادة الانتاج وتوفير أسباب الرفاهية . وإليه يرجع الفضل في تحرير البشر

من الضلال والأوهام والخوف . وفي الواقع قد أصبح البحث العلمي أداة فعالة لبناء حياة الأمم ولا بد من الاعتماد عليه للقيام بالمشاريع الزراعية والصناعية وتنظيم جهاز الدولة والمؤسسات الاجتماعية .

وقيمة العلم إنما تقاس بمقدار مساعدته لنا على الحياة . « فان الحياة ، كما قال (نيتشه) ، تأتي قبل المعرفة . والمعرفة التي تهمل الحياة وتقضى عليها إنما تفتى نفسها أيضاً » .

إن العلم يعتبر اليوم أهم عنصر في الثقافة الحديثة . ولا شك في أن أبرز أثر له هو تغييره لتفكير الانسان . فان طريقة البحث العلمي جعلتنا نؤمن بالعقل ولا نتقيد إلا بالواقع الذي تدركه الحواس ولا نقبل بشيء لا تؤيده التجربة . وتقضى هذه الطريقة التحرر من العقائد الغيبية - السحرية ومن الأوهام والأحكام السابقة وهي تفرض علينا المشاهدة الموضوعية والملاحظة المضبوطة والقياس الدقيق والتجرد عن العواطف والتمسك بالحياد .

ثم إن التفكير العلمي يتطلب التعاون التام بين الباحثين وتنظيم الجهود المشتركة وتوحيدها وبذلك فانه يمكن أن يصبح وسيلة فعالة للتضامن الاجتماعي والتفاهم بين الشعوب .

ولا حاجة هنا إلى تعداد النتائج الباهرة التي توصل إليها التفكير العلمي . فان الحضارة الحديثة باكتشافاتها ومخترعاتها وتقدمها في الزراعة والصناعة والتجارة وفي التنظيم السياسي والاجتماعي والسيطرة العسكرية - كلها يعود الفضل فيها ، بالدرجة الأولى ، إلى هذا التفكير العلمي . لا شك في أن هناك مشاكل كثيرة لم ينجح التفكير العلمي بعد في إيجاد الحلول اللازمة لها . ولا جدال في أن الحضارة الحديثة قد جلبت كثيراً من الشرور والويلات على البشرية وخلقت مشاكل جديدة على جانب كبير من الخطورة ، وما زالت تهدد العالم بأعظم الكوارث والمحن . ولكن هل نستطيع الادعاء بأن التفكير القديم غير العلمي كان أخف شراً أو أكثر مقدرة على حل مشاكل البشر؟ ثم أليس السبب في استمرار الشرور المتوارثة وتعاقب الأزمات الحديثة إنما هو التمسك بطرائق

التفكير القديمة وعدم تغلغل التفكير العلمي الحديث بين جميع الطبقات وفي كل المجتمعات ؟ وبينما يكتفى خصوم التفكير العلمي بإرجاع أسباب الفساد في العالم إلى « طبيعة الانسان الشريرة » ويعترفون هكذا بعجزهم عن معالجتها فان أنصار هذا التفكير يعللون الفساد بأنه ناتج عن الأوضاع الاجتماعية والآراء المشوهة ويعملون على إزالته بإصلاح أنظمة المجتمع ونشر المعرفة .

ومهما كان الأمر فان الحضارة الحديثة هي التي تسيطر اليوم على العالم ولا سبيل لأي شعب في أن يحافظ على كيانه دون مجاراة هذه الحضارة ، وقبل كل شيء دون الأخذ بالصناعة الآلية التي تقوم عليها ، وهذه الصناعة الآلية تفرض علينا اقتباس الثقافة الحديثة واتباع التفكير العلمي الذي تستند إليه . ولا يمكننا أن نتقدم في الصناعة الآلية ونستفيد منها في زيادة الانتاج وتهيئة وسائل القوة الضرورية لبقائنا دون نشر هذه الثقافة بين الشعب على أكبر مقياس ممكن . فانه لا يكفي أن تبني الصفوة الممتازة هذه الثقافة بل لابد أيضاً من أن تكتسب الجماهير الكادحة ، المنتجة من عمال وفلاحين قسماً كافياً من الثقافة العلمية والفنية . إذ لا فائدة من تجهيز الفلاحين بالآلات الزراعية إذا لم يتعلموا قبل ذلك كيف يحسنون استخدامها والحفاظ عليها . كذلك لا يستطيع العامل أن يتقن استخدام الآلات الحديثة وأن يستفيد منها إلى أقصى حد ممكن إلا إذا صار يفكر تفكيراً ميكانيكياً ويعرف تركيب الآلات ويتصف بما تتطلبه من سرعة الخاطر والاستجابة والانتباه الدقيق ، المتواصل . ثم إذا لاحظنا بأن الآلات في الصناعة الحديثة تزداد كل يوم تعقيداً ودقة وأننا سنحتاج في المستقبل إلى عمال لا يقتصرون على استخدام الآلات بل يصنعونها أيضاً ، ندرك ضرورة التوسع في نشر الثقافة الفنية القائمة على معرفة الرياضيات والفيزياء والكيمياء والميكانيك وعلى التفكير العلمي المجرد . كذلك لا فائدة من أن يصبح العامل قادراً على استخدام آلة تعادل قوتها (٢٤٠) من العبيد إذا ظل هو نفسه خاملاً ، بليداً ، عاجزاً عن التفكير الذاتي وعن النقد ، لا يستطيع تمييز الأخبار الصحيحة من الكاذبة وينقاد إلى الإيحاء والتضليل ولا يسيطر على أهوائه ونزعاته البدائية . ألا يشبه حينئذ الطفل الذي

نسلمه قضياً من « الديناميت » ؟ فإن ذلك لا يكسبه قوة وسطوة وإنما يزيد في الأخطار التي تنجم عن عدم إدراكه للمسؤولية .

وتتجلى لنا ضرورة تعميم الثقافة إذا فكرنا مثلاً في مشاريع العناية بالصحة العامة . فانه لا يكفي تهيئة العدد اللازم من الأطباء والمستشفيات والأدوية بل لابد من تنوير أفكار الجماهير وتعليمها تركيب جسم الانسان ووظائف أعضائه وكيفية انتقال الأمراض وطرق الوقاية منها . وتزداد الحاجة إلى الثقافة الشعبية عندما تنتقل إلى تكوين المواطنين الصالحين الذين يعرفون ببيان الدولة وجهاز الحكومة والعلاقات الاجتماعية وحقوق الأفراد وواجباتهم ويدركون معنى المسؤولية والتضامن والتعاون .

وفوق كل ذلك فان الصفوة الممتازة لا يمكنها أن تنمي ثقافتها العالية إلا إذا ظلت متصلة بالمجتمع الذي تعيش فيه وتستمد منه القوى المتجددة والعناصر اللازمة تؤثر فيه وتتأثر به . بل نستطيع القول بأن الثقافة الشعبية هي الأساس الذي تقوم عليه ثقافة الصفوة الممتازة وبدون هذا الأساس تبتى الثقافة العالية معلقة في الهواء فتقطع عن جذورها وتفقد الحياة . وكلما اتسعت الثقافة الشعبية ازدادت العوامل المساعدة على تقدم الصفوة الممتازة .

• • •

إن الصفوة الممتازة من المثقفين ورجال الفكر تنتظرها مهمة عظيمة وخطيرة في المجتمع العربي . فعليها أن تقوم باحياء تراثنا الثقافي الذي يجب أن نبني على أساسه صرح ثقافتنا في المستقبل . ومن الواضح أنه لابد لها من انتقاء الأعمدة القوية والعناصر المتينة التي تصلح للبناء الجديد . ثم إنه لا غنى لها عن اقتباس الثقافة الحديثة التي تلزمننا لمسايرة حاجات هذا العصر . ولا جدال في أن أهم ما نحتاج إليه هو التفكير العلمي الحديث الذي يجب أن يسيطر على ثقافتنا . كما ينبغي أن نطلع على التيارات الفكرية في هذا العصر وأن ندرك العوامل المؤثرة في المجتمع الحاضر . ومن الضروري أن تتوصل الصفوة الممتازة إلى الوحدة الفكرية والشعورية والارادية . على أن الوحدة لا تتنافى مع التنوع في الصور والكثرة في ألوان التعبير ، بل على العكس فان التنوع لازم للنمو

والازدهار والقوة ، على شرط أن لا يتجاوز حداً معيناً يحول دون الانسجام .
ويجب على الصفوة الممتازة أن تشعر بالمسئولية تجاه المجتمع وأن تكون على
اتصال وثيق معه فتتولى تنوير الرأى العام وتوجيهه وقيادته . وعليها أن
تتذكر دوماً بأن البشر لا يستطيعون التغلب على مشاكل الحياة فى جميع مظاهرها
إلا إذا أصبحت لديهم فكرة واضحة عن الكون ونظرة معينة إلى الحياة تتلاءم
مع معلوماتهم ونطمئن إليها عقولهم وتوحد بين آرائهم وعواطفهم وميولهم ويزول
معها الاختلاف بين الروح والعقل والاصطدام بين الحياة والفكر والتضارب
بين الضرورة والاختيار .

ومهمة النخبة المثقفة ورجال الفكر فى كل أمة وكل عصر إنما هى
تكوين هذه النظرة الكلية ، الشاملة ، الموجهة . . .

محمد كامل عباد